مجلة دراسات إنسانية واجتماعية (Journal of Social and Human Science Studies) ج وهران2/ المجلد 10 ع 3 / 16 /06/ 2021
ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

العقلانية التكنولوجية وتعميق الطابع الأحادي للإنسان من التخييرإلى حتمية التسخير هربرت ماركوز أنموذجا

Technological rationality and deepening the unilateral character of man from choice to the imperative of harnessing Herbert Marcuse as a paradigme

كحلي محمد* Mohamed Kehli med.philou@gmail.com	فلسفة	مختبر الأبعاد القيمية للتحولات الفكرية والسياسية بالجزائر كلية العلوم الاجتماعية / جامعة وهران2/ الجزائر
أ.د . بوعرفة عبد القادر Bouarfa Abdelkader Bouarfah9@gmail.com	فلسفة	مختبر الأبعاد القيمية للتحولات الفكرية والسياسية بالجزائر كلية العلوم الاجتماعية / جامعة وهران2/ الجزائر.

DOI : 10.46315/1714-010-003-012

الإرسال: 2020/08/12 **القبول**: 2020/09/03 **النشر**: 2021/06/16

ملخص: إن العقلانية التكنولوجية التي استحوذت على العقل الغربي وحولته إلى مجرد أداة جعلت «هربرت ماركوز» و«مدرسة فرانكفورت» عموما يؤسسون للعقلانية النقدية، التي أرادوا من خلالها نقد المجتمع الصناعي، الذي يعتبرونه ما هو إلا مشروع للسيطرة وإعادة استعباد الإنسان باسم العقلانية، وهنا يمكن القول أن «ماركوز» استطاع أن يحدد مكامن الخلل للعقل الأداتي، الذي أنتج إنسان «ذا البعد الواحد»، وهو ما يعتبره انعكاسا لسيطرة الآلة الصماء، فصار الإنسان مسخرا لخدمة مشاريع ترغمه على التبعية والانقياد، فهو أشبه بالعبد الذي سلبت منه حريته أو ذاته باسم «العقلانية التكنولوجية»، إنها حسب «ماركوز» عبودية إرادية أنتجت إنسانا أداتيا سمته الاغتراب والاستلاب والتشيؤ، بما تنتجه التقنية من الرقابة والقمع، كمشروع لتحويله إلى مجرد أداة للاستهلاك والإنتاج، والمفاضلة بين السلع وهذا ما نريد معالجته في هذه الورقة.

الكلمات المفتاحية: هربرت ماركوز؛ العقلانية التكنولوجية؛ منطق السيطرة؛ البعد الاستهلاكي.

Abstract: The technological rationality that captured the western mind and altered him to a mere tool which generally had made both Herbert Marcuse and the Frankfurt school to establish the critical rationality through which they wanted to criticize the industrial community that is considered , according to them, only a project to control and re-enslave the human under the rationality.

Thus , we can say that Marcuse could determine the defect places of the instrumental mind which has produced a human of "one dimensional" and it is considered, by Marcuse, as an impact of a machine control .thus ,the human has become harnesses to serve projects that compel him to be under dependency and docility

It is like a slave whose life or freedom has been taken from him under technology rationalism. It is, according to "Marcuse," a voluntary slavery that has produced a human being as like a tool characterized by alienation and objectification, with the technology control and repression, as a project to turn it into a mere tool for consumption and production as well as the comparison between goods. So, this is what we are going to address on this research paper.

Keywords : Herbert Marcuse ; Technological rationality ; Control areas ; the consumer dimension.

* - الباحث المرسل: med.philou@gmail.com

1- مقدمة:

اشتهر هنري برغسون Henri Bergson (1859/ 1941) بمقولة أن الإنسان قبل أن يكون مفكرا كان صانعا، وقد اضطر إلى ذلك اضطرارا، فالعيش ضمن فضاء طبيعي (بدائي) صعب حتم عليه أن يُطور أعضاءه من خلال صناعة بعض الوسائل التي هي امتداد لأعضاء جسمه، والغرض من ذلك القدرة على التكيف مع الواقع الصعب. بيد أنه لم يكن يتصور أن ظاهرة "الامتداد" ستكون في مستقبل البعيد لها انعكاسات سلبية على وجوده وحياته كلها.

انتقل الإنسان بعد الثورة الصناعية كلية إلى عصر التقنية، وانتقل في الوقت نفسه من المجتمع الريفي إلى المجتمع الصناعي، الذي أصبح الاستهلاك غايته الكبرى، والسلعة وسيلته الفضلى، فتشكلت عقلانية اجتماعية ذات طابع مادي استهلاكي، أثرت في بينية المجتمع سلبا، وأثرت أيضا في ماهية الإنسان. وأصبحت "الامتدادات" أكثر تعقيدا ودقة في الوقت نفسه.

إن العقلانية الغربية التي اعتقدها الإنسان إبان المجتمع الصناعي، وحولها إلى عقيدة فكرية، نراها في الوقت المعاصر قد تجاوزت حدودها، فصارت معقلا للمثالية والطوباوية، وتحولت إلى نوع من الميثولوجيا التي سيطرت على الإنسان وسخرته لخدمتها مبتعدة عما ظهرت لأجله من تحرير وتنوير، وهناك انزياح عام من العقلانية إلى اللاّعقلانية (Irrationality)، ليس في الخطاب الفلسفي فحسب بل الخطاب العلمي نفسه، وهذا ما نجده حاضرا في كتابات كثير من علماء الفيزياء بالخصوص بول كارل فيرابند Paul Feyerabend (1924/ 1994).

أما الخطاب الفلسفي فمثلت أفكار مارتن هايدغر(1889-1976) M. Heidegger» ملاذا لفلاسفة الجيل الأول، خاصة في ما يسميه «نهاية ميتافيزيقية الذاتية»، إذ تعتبر أطروحاته المنطلق والمرجع لهم في تشكيل ما أسماه «العقلانية التقنية»، التي أخذت جزءا كبيرا من أفكارهم وتبلورت معهم «العقلانية النقدية»، على اعتبار أن هذه العقلانية الغربية عقلانية غير مكتملة أنتجت عقلا أداتيا أعاد استعبادا جديدا باسم الحرية الاختيارية، فالتقنية حسبهم أصبحت تهديدا للإنسان لما أفرزته من التشيؤ والاغتراب والاستهلاك، فقد غيبت الإنسان وجعلته أداتا لخدمت مشاريعها إنها نوع من السيطرة الكلية. ولكن يجب القول أيضا أن فرديريك نيتشه Friedrich Nietzsche (1844/1900) كان له السبق والفضل في تقويض العقلانية الغربية على كل مستوياتها، ففلسفة الهدم التي مارسها أنتجت نزعة ضد كل ما هو عقلاني وثوقي، لقد أراد نيتشه تأسيس عقلانية جديدة تقوم على الهدم وإعادة البناء.

ولذلك يؤكد هيربرت ماركوز Herbert Marcuse (1898/ 1979)، بأن: «**التقنية أصبحت تمثل في المجتمعات المعاصرة السيطرة الكلية على الإنسان، وأن الطابع الشمولي يجعل منها - في ظل الشروط التاريخية القائمة قوة تتحكم في جميع النشاطات الإنسانية، وكأننا أما مشروع**

للسيطرة» (بومنير، ك، 2010، 58)، **فهو يعتبر بأن السيطرة على الإنسان وتحويله إلى مجرد كتلة كانت هاجسا تاريخيا لدى الساسة والعلماء منذ أمد بعيد، وأن استمرارها اليوم هو بمثابة استمرارية: «أن سيطرة الإنسان على الإنسان ما تزال تمثل في الو اقع الاجتماعي وبالرغم من كل تغير استمرارا تاريخيا، وما تزال هناك رابطة بين "العقل ما قبل التكنولوجي والعقل التكنولوجي". بيد أن المجتمع الذي يضع الخطط ويشرع فعلا في تحويل الطبيعة عن طريق التكنولوجيا ليغير المبادئ الأساسية للسيطرة»** (ماركوز، ه، 181،1988)، لقد أصبحت في نظره «العقلانية التكنولوجية» موردا للسيطرة وإرغام الإنسان على تمثل الحرية كما تفرضها مبادئها في منطق السيطرة والهيمنة، إذ أصبحت أعطاب وأسقام العقلانية التكنولوجية الغير مكتملة أو المزيفة في المجتمعات الصناعية الرأسمالية والاشتراكية، التي كبلت الإنسان وسيطرت عليه وارغمته على الخضوع لإرادتها التقنية حتى صار يعتقد ان طبيعة التكنولوجية وأدواتها خارجة عن إرادته وأصبحت تهره وهي في الحقيقة تستعبده وتشيئه وتجعل منه أداتا لخدمتها حسب «ماركوز»، فالعقلانية التكنولوجية لا توازي إلا السيطرة التي اختزلت الإنسان في البعد الاستهلاكي والانتاجي، وعليه، حولته إلى مجرد أداة وسلبت منه كل ما يملك.

ومن هنا نطرح التساؤلات الآتية:

كيف ساهمت العقلانية التكنولوجيا في استمرار منطق السيطرة والهيمنة على الإنسان؟

وما انعكاسات العقلانية التكنولوجية في تعميق البعد الاستهلاكي للإنسان ذو البعد الواحد؟

2- العقلانية التكنولوجية ومنطق السيطرة عند ماركوز:

لا شك أن «مدرسة فرانكفورت الألمانية» التي ظهرت في القرن الماضي، ومن خلال النظرية النقدية كبديل للفلسفة القديمة وعلم الاجتماع الوضعي والامبريقية، قد سارت في اتجاه نقدي حين قامت بنقد المجتمع الصناعي البورجوازي والعقلانية التكنولوجية وما يرتبط بها من إيديولوجية (معتوق، ف، 1970، 105)، وقد تبلورت هذه العقلانية الأداتية (التقنية) حسب هوركهايمر (1825-1973) «M. Horkheimer» وأدورنو (1903-1969)«T. Adorno»مع الثورة العلمية الحديثة التي شهدتها أوروبا والتي عبر عنا فلاسفة محدثون كبار وعلى رأسهم روني ديكارت (1596-1650)«R. Descartes» وفرانسيس بيكون (1561-1626)«F. Bacon»،ودافيد هيوم 1711-1776«D. Hume» وإيمانويل كانط 1724-1804«E. Kant» ، ثم مع "الفلسفة التي اتخذت صفة «العقل المتنور» وعُدت « Le Positivisme» الوضعية «الوضعانية» كل رحلة في العوالم العقلية ليست محرمة وحسب، بل محض ثرثرة لا معنى لها (بومنير، ك، 2010، 13، 14). إن هذه العقلانية التي تبلورت في عصر الأنوار، كانت تأمل في إخراج الإنسان من نسق العبودية والميثولوجيا، التي كان يعتقد العقل الغربي وفلاسفة التنوير أنها سوف تحرره وتدفعه إلى اكتشاف

ذاته، والتعامل بمحض إرادته مع كل ما يشترطه وجوده العيني، ولكنها عقلانية أعادت المظهر نفسه العبودي ولكن بأكثر جرأة، لأنها أصبحت عبودية باسم العقل والتقنية التي سلبت كل ما يملكه الإنسان، وقننت السيطرة والقمع في المجتمع الصناعي.

تُعد «العقلانية التكنولوجية» التي عرفها المجتمع الصناعي، والذي كشف عن عمق الأزمة، أزمةً رهيبةً، كانت بمثابة الهاجس الذي أدى إلى تشكيل «مدرسة فرانكفورت النقدية» على أنقاض بعض المدارس الغربية. وهنا تبلور تفكير «ماركوز» من خلال حوار صامت أجراه مع هيجل F. Hegel (1831- 1770) وماركسK. Marx (1883-1818) وأيضا فرديريك نيتشه. دون أن ننسى حواره مع سيغموند فرويد S. Freud (1939-1856). غير أن حواره الثري والمثمر كان مع فيلسوف الوجودية مارتن هيدجر.

وإذا كان من المعترف به أن هذه هي الشخصيات الرئيسة التي تحكمت في تشكيل فكر الإنسان المعاصر، فمن الصعب أن نتصور كيف يستطيع عقل واحد أن يستوعب كل هذه المؤثرات المتعارضة ويعترف صراحة بأنه كان بالفعل تلميذا لكل هؤلاء في آن واحد (زكريا، ف، 2005، 9).

فقد استطاع «ماركوز» أن يعيد تركيب فكرا فلسفيا نقديا للمجتمع الصناعي في مختلف ما طرحه، ونلاحظ ذلك من خلال كتابه «الإنسان ذو البعد الواحد»، الذي حلل فيه وضعية القرن العشرين، حيث يقول: **"المجتمع الصناعي بأساليبه وآلياته التقنية يسيطر على الإنسان بنفس أساليب الإدارة المحكمة التي يسيطر بها على عملية الإنتاج وتترتب على هذه السيطرة أنواع من الاغتراب العقلي والثقافي**." (شابو، ت، 2017، 53)، فالأطروحة الأساس لـ« ماركوز » في « الإنسان ذو البعد الواحد» تنبثق من التفاقم اللامحدود لسلطة الآلة في المجتمعات الصناعية الكبرى المتقدمة، فيرى تحول الإنسان في ظل هذا التقدم التكنولوجي إلى بعد واحد يمثل البعد التقني لسلطة الآلة، بحيث تفرز نمطا من العلاقة بين الفرد والمؤسسات التي تتحكم بتنظيمه الاجتماعي ووجوده اليومي، وتجعل وعيه يتموضع في نقطة محددة وموجهة نحو الهدف الذي ترسمه الدولة ومؤسساتها. (عماد الدين، إ. ع ر، 2015، 55) باسم العقلانية التقنية، ولكنها في الحقيقة تقدم مبررا تختفي ورائه قمعية وسلطة الإيديولوجيا، التي تعتمد توجيها نحو خدمة منطق السيطرة على حساب ذاته المقموعة، وأيضا تحت مكامن الإنتاجية والرفاه والديمقراطية والتقنية التي تعيد عبودية بثوب جديد.

وهنا يرى «ماركوز» أنه مرضا أصاب المجتمعات الصناعية المتقدمة، بشقيها الرأسمالي والاشتراكي، اسمه «البعد الواحد»، انطلاقا من أن التكنولوجيا في هذه المجتمعات تعزز وتطور أشكالا جديدة ومبتكرة من الرقابة الاجتماعية التي تسحق الإنسان كلية وتحرمه من حريته(بوتومور، ت، 2004، 171)، لأن المجتمع الصناعي المتقدم حسبه: **"لم يزيف حاجات**

الإنسان المادية فحسب ، بل زيف أيضا حاجاته الفكرية، فكره بالذات، والفكر أصلا عدو لدود لمجمع السيطرة، لأنه يمثل قوة العقل النقدية والحال أن المجتمع «ذا البعد الواحد» قد أحاط الإيديولوجيا بالازدراء والتحقير باسم عقلانيته التكنولوجية، بل امتصها وأبطل مفعولها. وهذا لا يعني بالطبع انه لم تعد هناك إيديولوجيا، وكل ما هنالك أن المدنية التقنية أصبحت هي الإيديولوجيا ." (بوتومور، ت، 2004، 13)، وأعادت تشكيل نفسها من جديد باسم «العقلانية التكنولوجية».

وهذا الواقع ينعكس سياسيا عل حركة التناقضات التي تميل نحو التوحد أو الصراع الشكلي، وإن كان في الحقيقة يستبعد كافة أشكال الصراع الكامنة في هذه المجتمعات، عن طريق احتواء هؤلاء الذين كانوا يمثلون في ظل النظم الاجتماعية السابقة عناصر الرفض والاحتجاج، حين نقلت القمع من خارجهم إلى دواخلهم، وزيفت حاجاتهم المادية والفكرية واختوت معارضتهم بصورة شمولية أو كلية، لأن «العقلانية التكنولوجية» هي التي صارت تقود المجتمع الصناعي، ولم تسمح بأي مساحة لتغيير الوضع القائم. خاصة وأن ماركوز يصفها بالميثولوجيا أو الأسطورة التي استحوذت طوباويتها على المجتمع الصناعي المعاصر. وفي نظره أن: "**التقدم التكنولوجي الذي تحظى به المجتمعات المتقدمة صناعيا يحمل في طياته ظاهرة لا مفر منها، تتمثل في خضوع العقل لو اقع الحياة، بحيث يتحول في ظل هذه المجتمعات إلى قوة باستطاعتها أن تجدد دائما وبكل ديناميكية مختلف تلك العناصر، التي تجعل من الحياة داخل هذه المجتمعات تزخر بالرفاهية التي تزودها بالحيوية في سيرورتها، وهذا يعني أن خضوع العقل أو تلك القوة النقدية في النظام القائم**." (بن شريف، ب، 2017، 525).

وعليه يعتبر «ماركوز» "أن تشكيل الإنسان في المجتمع الصناعي يقوم على جملة من أساسات العقلانية التكنولوجية، تجسدها مؤسسات هذا المجتمع، حيث تتحرك في ازدواجية بين إنجاح الفكرة وإرضاء الإنسان فردا أو جماعة، أما الغرض المحوري فهو السيطرة (براهمة، ج 2011/2010، 15)، كما يصف تومبسون « Thompson .R» إنسان البعد الواحد، كما عرضه «ماركوز»، بأنه: نصف أبله، حسن التغذية، ضحل في عواطفه، فقير في علاقاته الإنسانية، دمية سوقية، يسيطر عليه الخداع من ميلاده إلى وفاته (بوتومور، ت ، 2004، 172). وهنا لابد من التأكيد على أن المجتمع الصناعي العقلاني أزاح المبادئ الحقيقية للحرية واستبدلها بحرية زائفة تعيد السيطرة ولكن بأشكال غير محسوسة أو ملموسة تكون في الإطار الذي يتوحد فيه النظام الاجتماعي تحت فكرة واحدة تلبس شعار العقلانية التكنولوجية.

ولذلك اعتبر «ماركوز» الدور الذي تلعبه التكنولوجيا في تنميط الإنسان دورا يتعاظم على دورها التقدمي، فالتكنولوجيا في نظره تحول الأشياء إلى أدوات مروضة لاستغلالها لأغراض اجتماعية

وحضارية"(مارك، م، 2016)، فديناميكية التقدم التقني قد تلبست على الدوام محتوى سياسيا، وقد أصبح لوغوس التقنية لوغوس العبودية المستدامة. وقد كان بالإمكان أن تكون قوة التكنولوجيا قوة محررة عن طريق تحويل الأشياء إلى أدوات، ولكنها أصبحت عقبة في وجه التحرر عن طريق تحويل البشر إلى أدوات(ماركوز، هـ، 1988، 191) وإنما يتم التسلط عبر العقلانية العلمية التقنية، ولا توجد طبقة معارضة لأن الطبقة العاملة تم استيعابها من خلال عملية الاستهلاك والإنتاج الموجه، فالمجتمعات المعاصرة يمكن أن نسميها بمجتمعات الصناعة والتقنية، والتي جعلت من الفرد خاضعا لهيمنة وسيطرة تلتبس بلباس العقلانية، تُحجم قدرة الفرد على الاحتجاج أو المعارضة داخل أشكال الرفاه التي يوفرها لهم (شابو، ت، 2017، 55)، لأن العقلانية التكنولوجية حسب «ماركوز» لا تنفصل عن البعد السياسي بل هي جزء من المحتوى السياسي الذي يهدف كلاهما إلى السيطرة، فهما وجهان لعملة واحدة من حيث الوسائل والغايات.

ويرى «ماركوز» أن ذلك راجع إلى كون المجتمع الحداثي يتوفر على آليات خاصة في الرقابة والتنميط، آليات جديدة لم يسبق أن توافرت لمجتمع من قبل. فالنظام المجتمعي الحداثي هو بنية تقنية، تشتغل فيه الآلة الصماء من أجل تحقيق الوفرة الاستهلاكية، وإذا كان الإنسان قد اصطنع التقنية من أجل السيطرة على الطبيعة، فإنها انتهت إلى السيطرة عليه هو ذاته (بوعزة، ط،2006)، فعلاقة الإنسان بالطبيعة علاقة نفعية، استخداميه، وسائلية وأداتيه، حولت كل جمالات الطبيعة إلى أشياء قابلة للاستخدام والانتفاع. وضمن هذا السياق، الإنسان نفسه مجرد جزء أو عنصر من الطبيعة، فهو يخضع للتقنين والتنظيم والتوجيه مثل الطبيعة، ولهذا يمكننا القول بأنه أصبح مستوعباً كلية في النظام الطبيعي والاجتماعي أيضا، باعتباره شيئا ثابتا ولهذا يلجأ إلى فرض المقولات الكمية على السلوك الإنساني وإخضاعه للقوانين الرياضية والقواعد القياسية حتى يتم التحكم فيه تحكما تاما وشاملا. (بومنير، ك، 2010، 29).

إن التطور التكنولوجي الراهن هو واقع استعباد الإنسان وتشيؤه وتحوله إلى أداة لا واقع تحرره كما يعتبر ماركوز أن التكنولوجيا سياسة قبل أن تكون أي شيء آخر، لأن منطقها هو منطق السيطرة والهيمنة، ولأنها تخدم سياسة القوى الاجتماعية المسيطرة في الوقت الراهن. (مارك، م، 2016). إذن يرى «ماركوز» أن السيطرة بأشكالها وليدة العقل النظري بالأساس، وجسدها العقل العملي من خلال التقنية، فهناك ترابط بين العقل النظري والعملي، أفرز مبادئ العقلانية التكنولوجية، حيث نعلم أن الوضعية قد تأسست من خلال التركيز على الوقائع والمنهج العلمي وسنكشف الآن اندماج العلم والتقنية في الاتجاه الوضعي، وأنهما يقودان إلى ما يسميه «ماركوز» العقلانية التكنولوجية(براهمة، ج 2011/2010، 17)، وبعبارة أخرى، أصبحت التكنولوجيا الناقل الأكبر للتشيؤ، ذلك التشيؤ الذي بلغ أكمل أشكاله وأنجعها. فالوضع الاجتماعي للفرد

وعلاقاته مع سائر الافراد تتحدد على ما يبدو بصفات وقوانين موضوعية. ولكن هذه القوانين وهذه الصفات كفت عن ان تكون غامضة، وباتت مراقبتها ممكنة، إذ أنها لا تعدوا أن تكون أكثر من ظاهرات يمكن للعقلانية العلمية أن تقيسها وتحسبها. (ماركوز، ه، 1988، 193).

إن التكنولوجيا المعاصرة تضفي صيغة عقلانية عل ما يعانيه الإنسان من نقص في الحرية وتقيم البرهان على أنه يستحيل «تقنيا» أن يكون الإنسان سيد نفسه وأن يختار أسلوب حياته. وبالفعل أن نقص الحرية لا يطرح نفسه اليوم على أنه واقعة لاعقلانية أو واقعة ذات صبغة سياسية، وإنما يعبر بالأحرى عن واقع أن الإنسان بات خاضعا لجهاز تقني يزيد من رغد الحياة ورفاهيتها كما يزيد من انتاجية العمل.(ماركوز، ه، 1988، 190)، التي تعتبر وسائله أداة السيطرة والهيمنة الجديدة للدولة ومؤسساتها داخل المجتمعات الرأسمالية المتقدمة، وهيمنة الآلة الصناعية الكبيرة والاتجاه الاستهلاكي الساحق الذي ينجح في نزعة من الذوبان داخل تياره المتمكن، بحيث أصبح الإنسان في ظله يخضع لقوانين الإنتاج، وقيمته تتحدد بقوانين السوق والسلع. ورأى أنّ سلطة الدولة أصبحت أكثر اتساعاً، فكما حدث تقدم في وسائل الإنتاج، وفي العلم والتكنولوجيا، حدث تقدم مماثل في إدارة الدولة وفي قدرتها على القمع، وقد عمل التقدم الصناعي الحديث على تشويه طبقتي البرولتاريا والبورجوازية وتشويه العلاقة بينهما(ماركوز، ه، 1988، 66)، ويكشف "ماركوز" صورة الحرية في إطار مجتمع محكم التنسيق، لا يترك للإنسان إلا أن يختار ما يريده المجتمع، فهو المسؤول عن توفير احتمالات الاختيار وكأن الأمر يعكس جبرية خفية، تحركها إرادة تنتهي إلى جعل كل اختيار ليس إلا تعبيرا عن عبودية مقنعة يفرضها المجتمع القائم على الإنسان، «**فما كان في السابق استعباد بالقوة أصبح "استعباد إرادي"**» (براهمة، ج، 2017، 204).

ويبدو جليا بأن التقنية انها أصبحت وسيلة لحماية أصحاب السيطرة من الساسة وأرباب العمل، وتوفر لهم في الوقت نفسه سبل الاستبداد النّاعم: "**فالتكنولوجيا لا تضع شرعية السيطرة موضع اتهام و إنما هي تحميها بالأحرى والافق الأداتي لنزعة العقل يطل على مجتمع كلي استبدادي موسوم بالسمة العقلانية**"(ماركوز، ه، 191،1988)،التي أصبحت من مزاياها تلك المبادئ الاستهلاكية التي أعادت السيطرة على الإنسان وإرغامه على التبعية والخضوع لما تفرضه التقنية خاصة في مجتمع صناعي أصبح فيه السوق هو المجال الحيوي للسيطرة: "**وهذا ما يكون قد أدركه «ماركوز» بحدسه الر افض، فأعلن أن هذه العقلانية التكنولوجية تمثل اللاعقلانية؛ لقد استشعر خطورة الاحتمالات كما الاستنتاجات، من خلال تحليله للمجتمع الصناعي المتقدم**". (براهمة، ج، 2011/2010، 19)، كما اعتبرها «هوركهايمر» وزميله «أدورنو» فكرا بورجوازيا، وتم نقد الواقع المعاصر الذي أصبح يتعارض مع الفرد ويهيمن عليه(معتوق، ف،

1970، 111)، والتي وصفها أيضا «ماركوز» بالحرية المزيفة والاستعباد الجديد الذي صار فيها الإنسان مجرد أداة ومشروعا للهيمنة والسيطرة.

3 - العقل الأداتي وتعميق البعد الاستهلاكي:

لقد ترتب عن «العقل الأداتي» استخدامات أحادية، وهي نظرة السّيد للمسود، فكرس بذلك اغتراب الموضوع عن الذات واغتراب الذات عن الموضوع، وتُرجمت العقلانية إلى نظم شمولية وتسلطية بدورها. (بومنير، ك، 2010، 15)، وأصبح الإنسان مختصرا في السلعة، ورقم من أرقام السوق، وكان هذا بدلا من المفهوم التقليدي للعمل كمتعة، أو كواجب، هاتان السمتان لديننا المعاصر، بقدر ما هو موجود، هما «عبادة للإنتاج» و«عبادة للاستهلاك»، وكلاهما لا ينتميان إلى أي واقع ذي معنى في ضوء الوجود الإنساني(فروم، إ، 2013، 56)، الذي انبثق عن مجتمع العقلانية التكنولوجية الذي طوع الذات الإنسانية وجعلها مجرد انعكاس للبعد الاستهلاكي والانتاجي، وبالتالي نجح «العقل الأداتي» لمجتمع الوفرة في تشيئ الإنسان واستخدامه من قبل المؤسسات الاقتصادية والسياسية وأجهزتها الإيديولوجية القائمة على تكريس المصلحة والهيمنة بصورها المختلفة (بومنير، ك، 2010، 15). وعليه أصبح الإنسان وما ينتجه من سلوكه أشبه بالآلة التي يتحكم فيها عن بعد حيث يعتبر هذا نوعا من التجريد من أغلب ما يملكه.

إذ يخضع الإنسان «الأحادي البعد» في لباسه وتفكيره، وحتى مشربه وعاداته لهذه التكنولوجيا، التي باتت لا تفارقه لحظة واحدة فقد ظن الإنسان في بادئ الأمر انه يملكها، ولكنها في الحقيقة هي من أصبحت تملكه، إذ نجده يستهلك وفقا لما تدعو إليه ويعتقد أنه حر في اختياره، رغم أنه اختيار مفتعل من قبل أصحاب التقنية في استمالته لما يرغبون فيه، فحتى الرغبة لم تعد رغبته فهي مأخوذة أيضا وفقا لما رصدته الآلة التقنية ومن يقف وراءها، في وضع منتجات وسلع متعددة ودعوته للمفاضلة والاختيار بينها، دون أن يدرك الإنسان أنه مجرد أداة تفاضل بين تلك السلع التي صارت صنمية هو محتم على استهلاكها طوعيا، دون يشعر أنه مسخر في اختياره ورغبته وحتى أسلوبه في الاختيار، إنها عقلانية أداتيه "**أسفرت أشكالها القمعية بتحويل الإنسان إلى حيوان منتج مستهلك بالدرجة الأولى، إلى حد أنه يخنق في نفسه كل حاجة غير حاجة الإنتاج والاستهلاك**." (بوتومور، ت ، 2004، 171)، حتى صارت السلعة صنمية يعبدها على حساب ذاته.

وهكذا يرتبط القهر المتزايد بالارتفاع الكبير في مستوى المعيشة في المجتمع الصناعي المتقدم بعد أن كان من قبل يرتبط بالفقر والعجز عن تلبية الحاجات الضرورية. كما يرتبط ذلك القهر بسيادة العقلانية، بل وبالسعي إلى الحرية، وكأننا هنا إزاء مظهر من مظاهر " دهاء العقل " وخداعه، على نحو ما تحدث هنه هيجل. فالعقل يخدع ذاته (زكريا، ف، 2005، 30). حيث أن الإنسان «الأحادي البعد» في نظر «ماركوز» أسير عبودية الحاجات اليومية والاستهلاك. وهو ما

تطلب نقدَ تمركز الإنسان المعاصر حول الحياة اليومية، ونقد مظاهر مصارعة نفسه في مجتمعات قمعية، تبعده عن الحرية والوجود الذي يريده بسبب ما تنشره وسائل الإعلام والاتصال في ظل اتساع اقتصاد السوق والعقل الحسابي والمردود المادي، مقابل إغفال دور العلم الحقيقي، الذي من غير المعقول أن تتلخص مهمته في تفتيت الوعي الإنساني وتدعيم أسطورة العقل الاستهلاكي، كصورة مركزية للحضارة الغربية (معتوق، ف، 1970، 111). ليتشكل بعد ذلك الوجود المبني للمجهول وهو كل ما هو اجتماعي، لا شخصي، وهو بالتالي، كل ما يبعد الإنسان عن وجوده الصحيح ويقدم لنا وجودا جاهزا، يسلب حياتنا دلالتها الشخصية، في هذا الوجود يصبح الإنسان لا معنى له إلا بما يجب أن يكون عليه، وفقا لحياته الوظيفية، ولدوره الاجتماعي (غارودي، ر، 1983، 73) الذي تحكمه رغباته المزيفة.

كشف العقل الاستهلاكي حسب «ماركوز» الوجه القبيح الذي تتصف به المجتمعات الأحادية البعد، حيث دفعت به هذه المرة الظروف التي عاشها إبان القرن العشرين من ثورات ومعارك وسيطرة الأنظمة الشمولية... الخ، إلى تجاوز مفهوم فيتيشية البضاعة الذي حصره ماركس في إطار الحياة الاقتصادية الاجتماعية ومن بين هذه الظروف نجد تطور وسائل الانتاج وإنتاج سلع وأدوات متنوعة وراقية، بغية استقطاب أكبر عدد ممكن من المستهلكين، كتوفير ثلاثة وعشرين نوعا من مساحيق الغسيل مثلا، في حين كان إنتاج نوع واحد يفي بالحاجة(بن شريف، ب، 2017، 522).

أصبحت السيطرة التي تمارسها العقلانية الأداتية على الإنسان اليوم أخطر وأشمل من السيطرة التي عرفتها في الماضي، لأنها شملت عقله وعواطفه ورغباته وغرائزه وجسده، وهذا عندما أصبح خاضعا لوسائل الدعاية والإشهار والإعلام التي تعمل على ترويضه واختزاله في البعد الاستهلاكي(بومنير، ك، 2010، 31)، وهنا يمكن أن نؤكد على تسخير الإنسان لخدمة صفوة الملاك الذين يختبئون وراء الدعاية والإعلام دون أن يكتشف ذلك، وهذا ينطبق حتى على المثقفين الذين يعتقدون أنهم في منعة من سطوة البعد الاستهلاكي سوءا الفكري أو المادي باعتبارهم غير متخصصين في ما يحمله في طياته: "**لا مراء أن الخداع الاعلامي يكون لغة عالمية متفق عليها بين وسائل الاعلام بغض النظر عن مستويات الذكاء او الحريات**" (فهمي، أ، 1436، ص22)، ولذلك طفحت أكيال ملاكه بممارسة المكر والبرغماتية النفعية وإخلاء الساحات لقيادة الإنسان باسم العقلانية التكنولوجية قيادة ممزوجة بالافتراء على الوعي الإنساني بحجة خدمته.

وهنا يمكن القول إن «ماركوز» أدرك أن النزعة الاستهلاكية أصبحت شكلاً من أشكال السيطرة الاجتماعية. فبدلاً من السعي خلف الحرية الحقيقية اقتصر الاختيار على قرارات الشراء، ما أدى إلى إنتاج «إنسان أحادي البعد»، فالسلعة تصبح هي البداية والنهاية وهي مركز الوجود وبوابة

السعادة، إذ يلعب النظام الرأسمالي على وتر الحاجات وتغدو فكرة السعادة، بحسب الفرنسي جان بودريار، هي "المرجعية المطلقة للمجتمع الاستهلاكي" أو "معادل الخلاص"، وشعار "أنا أستهلك إذن أنا موجود" (الحجيري، م،2019)، فالإنسان قد تحول في ظل علاقات العمل الصناعية والرأسمالية إلى مجرد عنصر أو جزء ضئيل من جهاز الإنتاج الهائل الذي تحدده "الأتمتة" و«الميكنة»، وصار عجلة صغيرة مجهولة قابلة أن يستبدل بها غيرها داخل "العالم التقني" الضخم، الذي يصعب الإحاطة بشبكته المعقدة أو بالقوى التي تحرك خيوطه. فالإنسان واقع تحت ضغط الآلات التي تفرض عليه ألوانا من السلوك النمطي الرتيب، وتسد عليه منافذ المبادرة الشخصية الحرة، وتعوق تحديده لذاته، وتخنق فاعليته الخلاقة (مكاوي، ع غ، 2018، 19)، فأصبح الإنسان كما يقول «ماركوز» فاقدا لأبعاده، ولم يعد يقوم إلا ببعد واحد هو البعد الاستهلاكي، وذلك لأن العقلانية الأداتية أو التكنولوجية كما يسميها، باتت تفرز أشكالا جديدة من الوسائل والطرق والآليات القمعية التي تسحق الإنسان كليا وتحرمه من حريته واستقلاله الذاتي، وتحاول إقناعه بالحرية المزيفة، وهي بذلك تختزله في البعد الاستهلاكي الذي يحول الوجود الإنساني برمته إلى وضع بائس(بومنير، ك، 2010، 31)، ومختزل في الطبيعة الاستهلاكية التي تزيد من تعميق أزمته وتحتكر إرادته وتتسلط عليه تحت غطاء الرفاه والمتعة ومبدأ الامتلاك، التي أصبحت جزءا من ذاته، فأرغمته عقليته الأداتية على الاستهلاك الذي رسم التشيؤ والاغتراب. ويرجع هذا في الأصل لطبيعة النظام الاقتصادي الرأسمالي التسلطي، فعلاقات الإنتاج والسوق الرأسمالية هي المسئولة عن «عبادة السلع»، أو «صنميتها» «الفيتيشية»، التي أضفت على علاقات الناس بالأشياء وببعضهم بعضا طابع السلعة، وحصرتها في نطاق المنافع والوسائل المجردة من كل لمسة شخصية أو إنسانية، أضف إلى ذلك تقسيم العمل الموغل في التخصص خلال عملية الإنتاج وميكنة العمل نفسه وبيروقراطية الإدارة وصناعة الدعاية والإعلام ووسائطهما الجماهيرية... إلخ(مكاوي، ع غ، 2018، 20).

لقد أصبحت الميكنة والدعاية للنزعة الإنتاجية والاستهلاكية وما تعتمد عليه من العقلانية التقنية كشكل من إعادة تركيب الوعي المتطابق مع ما يرنوا إليه أرباب المجتمع الصناعي، إنها صورة مزيفة عن حرية الاختيار للسلع: "**والو اقع أن الوفرة التي تحققها التكنولوجيا الحديثة تجعل التشكك في الوضع الراهن أو التمرد عليه أمرا لا معنى له. وبفضل هذه التكنولوجيا المتقدمة يتجه النظام الرأسمالي الحديث إلى أن يكون " شموليا" ونتيجة لهذه الشمولية يستغرق النظام الإنتاجي الفرد بأكمله. فالفرد يندمج ولا يسمح له بأن يحتفظ لنفسه ببعد داخلي أو باطني إلا بالبعد الذي يريده النظام الاجتماعي والذى يتوحد به توحدا تاما.**" (زكريا، ف، 2005، 31)، حيث تصبح ذات الفرد ما هي إلا انعكاسا لمجتمع الوفرة:"**ونتيجة لارتفاع معدل**

الإنتاجية ومستوى الرخاء اللذين وصلت إليهما- تحولت العقلانية الاستهلاكية إلى نظام شامل للقمع والهيمنة والسيطرة، وعرضت الإنسان لأشكال مختلفة من القهر الظاهر والباطن، والقمع الواعي أو غير الواعي الذي ينطلق من أجهزة الإنتاج الضخمة، والمؤسسات الإدارية والبيروقراطية والاستهلاكية والإعلامية التي تشبه آلات هائلة يحاول الناس أن يكيفوا أنفسهم مع ضغوطها ومطالبها." (مكاوي، ع غ، 2018، 23)، والعودة لصنمية الاستهلاك التي شكلت العقل الأداتي المغرق في أزماته واستعلت عليه تلك القوة الإنتاجية والسطوة المدججة بالمعرفة الوهمية والكاذبة، التي جعلت الإنسان في تبعية وعبودية لما يضن أنه مصدرا للارتقاء بوعيه، وهنا نجده يدعم الطبيعة الاستهلاكية وتعزيز جرعاتها الإيديولوجية وتوسيع التشيء والأداتية للطبيعة الإنسانية، التي أصبحت فيها العقلانية التكنولوجية تقوم على شفرات عميقة ومدروسة ومجهزة للاستهلاك، يظن الأفراد أنهم بمقدورهم التعامل معها، ولكنها في الحقيقة ترسم على ذواتهم العديد من السلوكات والأفكار التي تجعل منهم مسخرين لخدمة مشاريع لا يعرفون أنهم أصبحوا عبيدا لملاكها ومهندسيها الذي يلعبون على حبل العاطفة أو التحميس لإقناع الجماهير بمشاريعهم.

غير أن النظام الرأسمالي العاهر - والتعبير لماركوز - لم يتوقف عند هذا الحد، بل إنه انطلق، وعبر مؤسساته الإعلامية الضخمة، ليذكر الزبائن باستمرار عن طريق الشاشة أو وسائل الاشهار المختلفة بمآثر الحية الاستهلاكية التي يحيون في كنفه .وعلى كل الأحوال، فإن الأفراد في ظل هذا المجتمع الحديث قد صاروا أغراضا ومواضيع، بل دمى يتلاعب بها الرأسماليون كيفما شاءوا (علواني، م، 2018). إنها حقيقة مجردة في السلوك الاستهلاكي لما يسميه «ماركوز» «إنسان البعد الواحد»، فلم يعد يملك من زمام أمره شيئا، حتى ذاته سلبت وأفرغت من مضمونها الحقيقي وبعدها الإنساني، وأصبحت وعاءً لمخلفات وعلل المجتمع الصناعي من تشيئ واغتراب وحرية مزيفة.

ويمكن القول آخر الأمر، أن ماركوز أحدث جدلا بين الإنسان المرفوض والإنسان المرغوب فيه، مُعتبرا أن الطلبة هم الطبقة الأكثر قدرة على الثورة وأحداث تغيير شامل في بنية الغرب، ويعتقد أن جوهر التغيير يكمن في إرجاع الإنسان إلى المركزية: " **يُعتبر هربرت ماركوز، من بين أهم المفكرين الغربيين الثائرين على المجتمع الغربي، ولقد وضع فلسفة تغيرية تعتمد على نقد وتقييم "مركزية الإنسان" (ANTHROPOCENTRISME)، يصور في كتابة (الإنسان ذو البعد الواحد) حقيقة الإنسان الغربي، والذي يعتبره نموذجا مرفوضا غير مرغوب فيه، ويحاول أن يتنبأ بالإنسان المستقبلي الذي يحتل صدارة أحداث الألفية الثالثة.**" (بوعرفة، ع، & أخرون، 2014، 63).

خاتمة

من الملاحظ في هذه الدراسة أن الإنسان الغربي أو المجتمع الصناعي خضع كليا لأسطورة العقل وسلم لها ذات وكيانه، حتى صار لا يعكسه إلا الانتاج والإنتاجية والسلع، وبالتالي حول نفسه إلى أداة لخدمة ما صنعه وأراد السيطرة به على الطبيعة، فماركوز استطاع أن يتعمق في تبيعات الحداثة التي انعطفت بها العقلانية التكنولوجية والتقنية من تحرير الإنسان إلى تحويله لمجرد آلة صماء، كباقي الأغراض والأشياء، إنها العقلانية التقنية التي سلبته زمام أمره وعوضته بأوهام جوفاء للسيطرة، عليه إذ حولته من التخيير التي التسيير ، عبر أشكال متنوعة من القهر والسلطة على ذاته، ومن هنا بات إنسانا ذا بعد واحد، فهو لا يفكر ولا يقرر إلا انطلاقا من الطبيعة الاستهلاكية التي حرمته حريته وعوضته بحرية مزيفة، وعليه صار الإنسان يعيش حالة من الاغتراب والتشؤ، الذي يفاضل فيه فقط بين السلع بأداتيته الاستهلاكية .

وعليه يمكن القول إن الإنسانَ ذُو البعد الواحد، ما هو الا أداة لخدمة مشروع السيطرة وتعميق سطوة الاستهلاك والانتاج وتبجيل السلع، فهو إنسان غير قادر على الثورة والتغيير باسم الرفاه الذي يعيشه، فقد سلم ذاته للتقنية وعقلانيتها، وقد عبر عن ذلك بقوله: "**فالإنسان الأحادي البعد سيتأرجح بين فرضيتين متناقضتين: -إما أن المجتمع الصناعي المتقدم قادر على الحيلولة دون تحول نوعي للمجتمع في المستقبل المباشر، -وإما أن هناك قوى وميولا قادرة على التجاوزوعلى تغيير المجتمع**." (ماركوز، ه، 1988، 63 & 64)

ويبدو أن المستقبل سيزيد من أزمة الإنسان المعاصر، فكلما زادت التقنية كمالاً وقدرة على الأداء تم فقدان الإنسان لوظائفه الاجتماعية والطبيعية، وسيجد نفسه ذات يوم بدون وظيفة، وعندها سيعلن الإنسان عن نهايته وخروجه من التاريخ.

قد يشمل فقدان الوظائف حتى الوظائف البيولوجية والطبيعية، فمثلا بمقدور الآلة الإنجاب بدل الأم (الرحم الصناعي)، كما تستطيع الألة التناسل بدون الحاجة إلى ذكر (التلقيح الاصطناعي). وحتى رعاية الأبناء تم سلبها من الأسرة، وأصبحت الدولة تقوم بها نيابة عنه.

إن الآلة جاءت لتخدم الإنسان لكنها تحولت بفعل الزمن إلى مُستعبدة الإنسان، وليس هناك استعباد مثل سلب الإسنان وجوده العيني، والذي يجده فيما يقدمه من وظائف وخدمات لنفسه وغيره.

قائمة المراجع:

الكتب:

1. بوتومور، توم. (2004). مدرسة فرانكفورت. تر: سعد هجرس. مر: محمد حافظ دياب، ط2، ليبيا: دار اويا للنشر.
2. بوعرفة، عبد القادر & أخرون. (2014). تأملات نقدية في فكر مالك بن نبي، ط1، الجزائر: دار القدس العربي.
3. بومنير كمال. (2010). النظرية النقدية لمدرسة فرنكفورت: من ماكس هوركهايمر الى اكسل هونيث، ط1، الجزائر: الدار العربية للنشر ناشرون ومؤسسة الاختلاف.
4. زكريا، فؤاد. (2005). هربرت ماركوز. ط1، الاسكندرية: دار الوفاء لدنيا للنشر.
5. عبد الغفار مكاوي. (2018). النظرية النقدية لمدرسة فرنكفورت: تمهيد وتعقيب نقدي، مؤسسة هنداوي للنشر.
6. غارودي، روجي. (1983). نظرات حول الإنسان. تر: يحيى هويدي. القاهرة: المجلس الاعلى للثقافة.
7. فروم، إريك. (2013). مساهمة في علوم الإنسان: الصحة النفسية للمجتمع المعاصر، تر: محمد حبيب، ط1، سوريا: دار الحوار للنشر، اللاذقية.
8. فهمي، أحمد. (1436). هندسة الجمهور: كيف تغير وسائل الاعلام الافكار والتصرفات. ط1، الرياض: مركز البيان للبحوث والدراسات.
9. ماركوز، هربت، (1988)، الإنسان ذو البعد الواحد، تر: جورج طرابيشي. ط3. لبنان، بيروت: دار الآداب.

الرسائل الجامعية:

10. براهمة جمال. (2011/2010). الإنسان والوعي في فلسفة هاربت ماركوز، رسالة ماجستير. في الفلسفة. كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية. جامعة منتوري قسنطينة.

المجلات العلمية:

11. براهمة جمال. (2017). الحرية بين الحقيقة والزيف منظور "اريك فروم" و" هربرت ماركوز". مجلة دراسات، جامعة قسنطينة 2: مجلد 4، العدد: 6،.....
12. بوعلام بن شريف. (2017). مفهوم التشيّؤ وأشكاله لدى هربرت ماركوز. مجلة المفكر. جامعة الجزائر 2: المجلد 1، العدد 2.
13. توفيق شابو، (2017). النزعة النقدية الثقافية عند مدرسة فرانكفورت: براديغمات: الإنسان- الثقافة- الفن. مجلة اللغة العربية وآدابها. جامعة البليدة2: المجلد 5، العدد 1.
14. عماد الدين ابراهيم عبد الرازق. (2015). مفهوم الاغتراب لدى فلاسفة مدرسة فرانكفورت، مجلة 'لوغوس، جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان، المجلد:3، العدد 3.
15. معتوق فتيحة. (1970). النقد بين ابن خلدون ومدرسة فرنكفورت. مجلة المعيار. جامعة العلوم الاسلامية الأمير عبد القادر، جامعة قسنطينة: المجلد 19، العدد 38.

المو اقع الالكترونية:

16. الطيب بوعزة، (كانون الثاني 2006). ماركوز والمجتمع الحداثي، مجلة النبأ: شهرية ثقافية عامة، العدد80، الاطلاع: 2019/11/09، انظر الرابط: https://annabaa.org/nbahome/nba80/004.htm
17. مارك مجدي ، (4/4/ 2016). هربرت ماركوز .. التكنولوجيا وتنميط الإنسان، الحوار المتمدن-العدد: 5123 -- 19:30 ، الاطلاع: 2019/11/08، انظر الرابط: http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=512067
18. محمد الحجيري، (1/06/ 2019). قديسو الاستهلاك وشياطينه، نشر في جريدة الجديد الالكترونية، الاطلاع: 2019/11/10، انظر الرابط: https://aljadeedmagazine.com
19. محمد علواني، (2018/04/10). صناعة الثقافة وذبول الفرد في المجتمع الحديث، نشر في موقع حكمة، الاطلاع: 2019/11/11، انظر الرابط:https://hekmah.org/ /